المحاضرتان 1+ 2 د عمار النهار

أصول المماليك

وعوامل قيام دولتهم

أولاً ــ نشأة المماليك وأصولهم وبداياتهم[i]:

المماليك جمع مملوك، وهو اسم مشتق (اسم مفعول) من فعل (ملك)، ومعناه العبد المملوك، من أي لون أو جنس أو منبت، و سواء كان أسود البشرة أو أسمرها أو أشقرها.

والمملوك هو العبد الذي يباع ويشترى، لكن مصطلح (المماليك) أُطلق على فئة من العبيد الذين كان الأمراء والسلاطين والخلفاء يشتروهم ليصنعوا منهم رجالاً أشداء، ويشكلون منهم فرقاً خاصة في جيوشهم.

وقد قيل: إن لفظ مملوك في أصله اللغوي المستخرج من الفعل (ملك)، ويعني الرقيق الذي يُشترى بهدف تربيته والاستعانة به كجند، وهو على عكس كلمة عبد التي استُعملت في العصر الإسلامي الأول.

فالمملوك هو من مُلِك و لم يُمْلك أبواه، وهذه تأتي بمعنى السبي وهو الأسير، وهو ليس أصله من العبيد، وقد يكون مأسوراً أو مخطوفاً أو مملوكاً قهراً، وبيع في أسواق النخاسة[ii].

ويجب علينا التمييز بين لفظتي (المماليك) و(العبيد)، فلفظة (مماليك) نفسها تعني ما يُملك بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك، على عكس لفظة (العبيد) التي تعني العبودية، فالعبد يُولد من الرقيق، بينما يُولد المملوك من أبوين حرين، كما أن العبد يعني أسود، بينما يكون المملوك أبيض، ويتشابه الاثنان في أنهما قد جمعتهما وحدة الغربة والمخاطرة[iii].

ويرتبط اسم المماليك بالرق، والرق نظام عميق الجذور، عرفته الأمم وعرفه أصحاب الشرائع السابقة. وكانت الأمم القوية التي عاشت قبل الإسلام كالفرس والروم في العراق والشام ومصر تنظر إلى السكان الأصليين كما تنظر إلى العبيد، فاتخذت الكثيرين منهم أرقاء، فقد شاع هذا النظام عند اليونانيين والرومان والفرس و المصريين القدماء والهنود.

كما عرف اليهود الرق، وآمنوا بالتمييز العنصري، فهم لا يلاحظون الجانب الإنساني في غير اليهود، وعرف المسيحيون الرق أيضاً، وعرفه العرب في الجاهلية مثلهم مثل سائر الأمم الأخرى[iv].

وعندما جاء الإسلام لم يكن هناك من يستغرب أحوال الرقيق، أو من يشعر بالحاجة إلى تعديلها، إلا أن الإسلام لم يأمر بالاسترقاق قط، و لم يرد في القرآن الكريم نص على جواز استرقاق الأسرى، ولكن الإسلام جاء فوجد الرق نظاماً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً، فعمل على علاج تلك الظاهرة بتجفيف مصادر جلب الرقيق، بغية الوصول ـــ مع مرور الزمن ـــ إلى إلغائه من دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها أو قيادتها، فبدأ الإسلام بتخفيف موارد الرق، ويسّر السبيل إلى تحرير الأسرى، وأخذ يعمل على تحرير الأرقاء، بوسائل وأساليب كثيرة.

ونتيجة استمرار الحروب بين الأمم انتشرت تجارة الرقيق في الدولة الإسلامية، كما انتشرت في غيرها من الدول، وتنوع الأرقاء، فمنهم السود ومنهم البيض (المماليك)، وبُذلت الأثمان الغالية في شرائهم، وكان الأتراك والصقالبة أشهر الرقيق الأبيض في القرون الوسطى، وكان الرقيق الصقالبة موضع تفضيل، وهم سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أرضها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتي، كما تمتع الرقيق الأتراك بمكانة ممتازة في البيوت الإسلامية، وكانت أقاليم ما وراء النهر مصدراً مهماً لهم حيث أضحت تجارتهم أعظم مهنة هناك، أما الرقيق الصقالبة فطريقه الرئيسي هو الطريق الذي يبتدئ من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وإلى فرنسا ومنها إلى إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

وأُنشئت للرقيق أسواق وخانات في المدن الكبرى، أشهرها دار الرقيق في بغداد، وسوق الرقيق في دمشق، وسوق سامراء في العراق، وخان مسرور في القاهرة[v].

ويرجع استخدام المماليك في الجيوش العربية الإسلامية إلى أيام الدولة العباسية على الأرجح، على أن ذلك كان أوضح ما يكون في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (ت 227 هـ = 841م) الذي شكّل منهم فرقاً عسكرية، وكان يُرسل من يشتريهم، واستكثر منهم حتى اختلفت الروايات في مقدار عددهم، فذكر المسعودي أن عدتهم بلغت أربعة آلاف، وقال ابن تغري بردي: إنهم ثمانية آلاف، وقال ابن دقماق: إنهم ثمانية عشر ألفاً، بينما استقر رأي العمري على أنهم ثلاثون ألفاً[vi]. وعندما ازدادت أعدادهم في بغداد، وصاروا يؤذون العوام فيها، بنى لهم المعتصم مدينة سامراء وأسكنهم فيها[vii].

ولما ضعف سلطان الخلافة في الأقاليم، وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وبات الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، ازداد الأتراك أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة، غير أن الحركات الاستقلالية ما لبثت أن أغرت الأتراك أنفسهم، حتى صارت معظم الدويلات الإسلامية منذ أواسط القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي من الترك، وهؤلاء جعلوا جيوشهم من جنسهم، بل إن بعض الدويلات غير التركية جعلت تكوين جيوشها أو حرس ملوكها على الأقل من المماليك الأتراك المجلوبين عن طريق الشراء[viii].

وبذلك ظلت الدول القائمة آنذاك تعتمد على هذا العنصر، فالدولة الصفارية (254 - 298هـ=868-911م) استعانت بهم، واستخدمهم السامانيون (261-389هـ=874-998م) في جيوشهم منذ عام 300هـ=912م، أما في مصر فقد استخدم هؤلاء المماليك كلٌ من الدولة الطولونية (254-292هـ=868-905م)، والدولة الإخشيدية (323-358هـ=935-969م)، ولما دخل الفاطميون مصر عام (358هـ=969م) اعتمد حكامهم الأوائل منذ أيام المعز (341-365هـ = 952-975م) على عناصر تركية[ix].

ويجب هنا أن ننتبه إلى أن تعبير (المماليك) تطور عبر الزمن وأصبح يطلق بالمفهوم التاريخي على دولة أسسها في مصر والشام أولئك المماليك الذين أحضرهم صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من بعده، مشكلين فئة خاصة، ذات ميزات منفردة وأسلوب منفرد في التاريخ كما سيوضح ذلك هذا الكتاب.

فكان للمماليك في مصر مركز خاص استثنائي، لا يمكن معه مقارنته بأي مماليك في أي مكان آخر في العالم، حتى مماليك بغداد حين تسلّطوا على الخليفة والحكم والقرار، لم يكونوا قادرين على تشكيل دولة أو فئة أرستقراطية عسكرية. وحتى في حالة تجمعاتهم الكبيرة وثوراتهم العامة (كثورة الزنج) فإنهم لم يشكلوا دولة، وكان تسلطهم أو سيادتهم عارضة و فردية لم تنتقل لخلفائهم أو لبني جلدتهم، على عكس ما حصل في مصر فيما بعد[x].

و لم يكن من الصعب الحصول على هؤلاء المماليك، ذلك أن تجارة العبيد كانت رائجة جداً في حينها، وكان الوضع الاقتصادي للقبائل سيئاً للغاية، وأصبح الوضع الاقتصادي في العصور الوسطى متداعياً جداً، وانتشرت المجاعات، وكثرت الحروب الصليبية وحروب التتار، وحروب قبائل البدو في الشرق والغرب، واضطر كثير من الأهل في مناطق وسط آسيا وشرق أوربا لبيع أولادهم، خصوصاً للدولة الإسلامية، لأنهم واثقون من حصول أولادهم على مستقبل أفضل، وخصوصاً أن بعض من سبقهم وصل إلى مراكز عالية بالسلطة، منها قادة الجيوش وحتى السلاطين. وقد شاعت الأخبار لدى هذه القبائل أن أولادهم سيلاقون مصيراً أفضل، وسعادة وسرعة في الوصول إلى الثراء، وسيترقون في الوظائف والمناصب، فما كان أهل تلك القبائل يرون غضاضة أو حرجاً في بيع أولادهم للنخّاسين الذين كانوا يعدونهم بحياة رغيدة ومستقبل عظيم بدلاً من حياة البؤس التي كانوا يعيشونها، مما جعل الرقيق لا يعتمد على سبايا الحرب فقط. وبعض هؤلاء المماليك لم يفقدوا صلتهم بأهاليهم بل أرسلوا بطلبهم للحضور، ومنهم برقوق الذي أحضر والده آنص وأهله[xi].

على كل حال؛ لما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين عام 567هـ =1171م ساروا على نهج الدول التي سبقتهم في الإكثار من شراء المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش، فكان جيش صلاح الدين مكوناً من عدة فرق منهم، وقام هو بنفسه بشراء مجموعة وكوّن منها فرقة يقال لها المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه (الملك الناصر)، وبعد وفاته حدث كثير من المنازعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، فكان من الطبيعي أن تزداد أعداد المماليك الأتراك في أثناء تلك النزاعات، وأن يستمر بنو أيوب في جلب الرقيق لتغذية جيوشهم[xii]، وكان أكثر الأيوبيين جلباً للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب كما سنرى.

ولم يكن ثمة استمرار تاريخي يربط بين مماليك الأيوبيين ومماليك كلٍّ من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين، لأن هؤلاء كانوا أخلاطاً من البيض والسود، في حين كان مماليك الأيوبيين من الأتراك القفجاق[xiii].

فتعود أصول المماليك الذين جاؤوا إلى مصر إلى بلاد القفجاق الواقعة في حوض نهر الفولغا شمال البحر الأسود وفي القوقاز، حيث تعيش قبائل مختلفة من الأتراك والجراكسة والروس والمجر وغيرهم، فالصالح نجم الدين أيوب لما تولى الحكم اشترى منهم نحو ألف تقريباً وأمّر منهم جماعة في أثناء حياته.

كما تعود أصول غيرهم إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وآسيا الصغرى، وفارس، وتركستان، وبلاد ما وراء النهر، وأواسط آسيا، ومنغوليا، وكذلك كان يُستجلب المماليك من الأرمن والشركس والمغول، ومن الأتراك والروم والروس والأكراد، وكانت هنالك أقلية أوربية من اليونان وإسبانيا وألمانيا[xiv].

فالمماليك من أجناس مختلفة، إذ من الممكن أن تجد في القطعة العسكرية الواحدة أشخاصاً من مختلف الجنسيات الآسيوية والأوربية، ويسري هذا الحال على السلاطين، فالسلطان كتبغا مغولي الأصل، وخشقدم من أصل ألباني، وقد شاهد الرحالة الأوربيون الذين زاروا القاهرة في القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي مماليك من أصول ألمانية وهنغارية وإيطالية أيضاً[xv].

وكان التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالباً عن طريق البحر، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية، بينما كان التجار المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر، ثم يؤتى بالمماليك للبيع في أسواق القاهرة والإسكندرية وغيرها من الأماكن[xvi].

وكانت أثمان هؤلاء الرقيق تختلف بين قلة أو كثرة، وتصل أحياناً إلى أثمان باهظة، وذلك يعتمد على اللون والقوة ومقدار الجمال والذكاء[xvii].

ولم يتوقف سيل ورود المماليك الجدد حتى بعد سيطرتهم على الحكم، فقد استمر استجلابهم في عهد الظاهر بيبرس، والملك قلاوون، ثم السلطان حسن وبرقوق وبرسباي وقايتباي.

ولم يكن السلطان وحده الذي يستجلب المماليك، فلقد كان الأمراء أيضاً يشترونهم ويشكّلون منهم حرسهم الخاص، وعناصر جندهم المقربين، ولذلك كان المملوك الأسعد حظاً من يملكه السلطان الذي سيحرره فيما بعد ليكون أميراً على عشرة أو خمسين أو مئة، وقد يثب في ترقيته وثبة واحدة ليكون أمير ألف[xviii].

وكان المماليك يُنسبون إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم أو تاجر الرقيق الذي استجلبهم، مثل المماليك الذين عُرفوا باسم المماليك العثمانية، وقد نُسبوا إلى الخواجا عثمان الذي استجلبهم وكان أحد كبار تجار المماليك، وقد اشتهر بحسن بضاعته، لذلك كان الانتساب إليه من باب الفخر والاعتزاز. وكان يذكر نسبهم هذا بعد اسمهم، إذ لا جدوى من ذكر اسم عائلتهم الأصلي، فمثلاً: الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، اسمه بيبرس، وتلقّب فيما بعد بالظاهر على عادة ذلك العصر، وكان علاء الدين البندقداري هو أول مالك له، ثم تسمّى بالصالحي نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن انتقل إلى خدمته، وبعد أن قام بيبرس نفسه بشراء المماليك من التجار أُطلق اسمه على مماليكه وتسموا بالمماليك الظاهرية.

بينما نجد أن السلطان قلاوون الألفي إنما أخذ اسمه (الألفي) من القيمة الباهظة التي دفعت لشرائه وهي ألف دينار، وكانت آنذاك مبلغاً جسيماً، مما كان مدعاة فخر لمالكه ولقلاوون نفسه[xix]. ولا تزال عائلة الألفي موجودة اليوم في مصر.

وقد غلبت تسمية الترك على هؤلاء المماليك، ولهذا قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كلهم من الجنس التركي، والواقع أن فيهم عدة أجناس أخرى، فمنهم من كان من أصل تركي كالظاهر

بيبرس، أو جركسي كبرقوق، أو تتري كالعادل زين الدين كتبغا، وهناك مماليك من أجناس أخرى كالتركمان والأرمن والروم وغيرهم، واسم الترك غالب على مجملهم لكثرتهم وتميّزهم كما يقول ابن خلدون[xx].

ثانياً ــ عوامل قيام دولة المماليك وثبات حكمها[xxi]:

امتد عصر المماليك بين عامي 648- 923هـ = 1250-1517م منذ سقوط الأيوبيين إلى مجيء العثمانيين. ومنذ تأسيس دولة المماليك وحتى مقدم العثمانيين عام 923هـ = 1517م حكم المماليك أكثر من (275) عاماً، انقسموا خلالها إلى دولتين هما: الدولة البحرية ومؤسسها عز الدين أيبك، وحكمت نحو (135) عاماً بين سنتي 648-784 هـ = 1250-1382م، وكلمة البحرية أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم، وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيدها الصالح نجم الدين الأيوبي بقلعة الروضة في نهر النيل فعُرفوا بالبحرية، وصاحَبهم هذا الاسم[xxii].

و الدولة الثانية هي دولة المماليك الجركسية، وأصل معظم ملوكها من بلاد الجركس، لذلك سُموا بهذا الاسم، وسُموا باسم آخر هو البرجية، لأن المنصور قلاوون عندما أكثر من شرائهم حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعمئة أسكنهم في أبراج قلعة الجبل، وقد استمرت هذه الدولة قرابة (139) عاماً، ويعد مؤسسها الظاهر برقوق العثماني الجركسي[xxiii].

وقد توافر لدولة المماليك عوامل أدت إلى قيامها، وهي عديدة ومتنوعة، وداخلية وخارجية. وكان لدولة المماليك عوامل أدت إلى ثبات حكمها واستمراره قرابة ثلاثة قرون، وإليكم تفاصيل ذلك.

1ــ العوامل الداخلية:

أ ــ ضعف الدولة الأيوبية والتنازل عن بيت المقدس والتفريط به مرتين:

ترك صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته دولة واسعة الأرجاء، وسبعة عشر ولداً وبنتاً واحدة، وكان قد وزع خلال حياته السياسية البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة، فتقاسم هؤلاء التركة الصلاحية بعد وفاته في ظل ما حدث من

المؤامرات والحروب بينهم، إذ إن كلاً منهم كان يطمح في أن يضاهي نصيبه نصيب جاره أو يفوقه، ويرمي إلى تزعم العائلة الأيوبية، والحقيقة أنه ــ ومنذ وفاة صلاح الدين ــ لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة حفلت بالمؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية[xxiv].

وقد استطاع الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين خاضعين له، ثم بدأ بتنظيم الدولة، ووزع أولاده على الولايات، فارتكب بهذا التوزيع الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وزع إرثه على أولاده وإخوته، مما أدى إلى إضعاف الأيوبيين، فهذا التوزيع سبّب التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين من جديد[xxv].

وفي كل هذه المنافسات والمنازعات، كان الأيوبيون يستكثرون من شراء المماليك، وكانت كل مجموعة من هؤلاء تُنسب إلى صاحبها الذي اشتراها وتولاها بالتربية والتدريب، فالأسدية مثلاً سُميت بذلك نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، والعادلية نسبة إلى الملك العادل أخي صلاح الدين، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل[xxvi].

وتدل الأحداث على أنه كان لهؤلاء دور كبير في تطور الأحوال السياسية، وأثر فعّال في الحروب، وكانوا يتدخلون تدخلاً مؤثراً في شؤون الدولة الأيوبية، بل أسهموا في كثير من الأحيان في عزل السلاطين وتوليتهم، وهذا كان له أثر واضح في انتقال السلطة إلى المماليك[xxvii].

وإن أخطر قضية حدثت في التاريخ الأيوبي ــ وربما الإسلامي ــ هي قضية تسليم بيت المقدس للصليبيين؛ وبدأ ذلك باتفاقية يافا سنة 626 هـ = 1228م، حين تنازل الكامل الأيوبي عنه، إذ وُقّعت هذه الاتفاقية بين الطرفين الأيوبي بقيادة الكامل والصليبي بقيادة فريدريك، ونصّت على أن يأخذ ملك الفرنج بيت المقدس من المسلمين، «فأخلى الكامل البيت المقدس من المسلمين وسلّمه إلى الفرنج وصالحهم على ذلك»[xxviii].

وبعد هذا التسليم بعشر سنوات تقريباً، توجه الملك الناصر داود بعساكره ومن والاه إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة التي بناها الفرنج، ونصب عليها المجانيق، ولم يزل على ذلك حتى سُلمت إليه بالأمان سنة 637هـ = 1239م[xxix]. فعاد بيت المقدس للمسلمين.

و لم تمض أربع سنوات على تحرير بيت المقدس حتى تم التفريط به ثانية، ففي سنة 641هـ = 1243م وقعت مراسلة بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وتقرر الاتفاق بينهما على تقاسم المصالح، فلم يُعمّر هذا الاتفاق طويلاً، إذ سرعان ما نُقض، لأن الصالح نجم الدين كاتب الخوارزمية، فاجتمع الفريق الثاني من الأيوبيين بقيادة الصالح إسماعيل وصالحوا الفرنج واتفقوا معهم على تسليمهم بيت المقدس.

والحمد لله أن بيت المقدس عاد في السنة التالية لتسليمه، وذلك سنة 642هـ = 1244م، عندما اقتحمه الخوارزميون، ولكنهم وللأسف اعتدوا على الأماكن المسيحية فيه، ودمروا وأتلفوا معظمها، وقاموا بعمليات نهب واسعة النطاق[xxx].

ب ــ ضعف الخلافة العباسية في بغداد وسقوطها:

أسقط هولاكو الخلافة العباسية في بغداد سنة 656 هـ = 1258م، وكان من أكبر أسباب ذلك ضعف الدولة العباسية واتساع رقعة أراضيها، ففقدت السيطرة على ذلك، بالإضافة إلى الخلفاء الذين لم يكن لهم حول ولا قوة، ويُعزى السبب المباشر لسقوط العباسيين إلى عهد آخر خليفة وهو المستعصم، وبالتحديد إلى وزيره، وهذا الوزير هو محمد بن محمد بن علي مؤيد الدين ابن العلقمي، والذي ولي الوزارة أربع عشرة سنة، وكان خبيراً بتدبير الملك، وقد كاتب التتار سراً وجرهم إلى بغداد، وحُكي أنّه لما كان يكاتب التتار تحيل إلى أن أخذ رجلاً حلق رأسه حلقاً بليغاً، وكتب عليه ما أراد بالأُبر، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره، وغطى ما كتب، ثم قال له: إذا وصلت مرهم بحلق رأسك، ودعهم يقرؤون ما فيه، وكان آخر الكلام «اقطعوا الورقة»، فضُربت عنقه.

أما ما كتبه ابن العلقمي إلى هولاكو فهو مايلي: «إنك تحضر إلى بغداد وأنا أُسلمها لك»، فكتب إليه هولاكو: «إن عساكر بغداد كثيرة، فإن كنت صادقاً فيما قلته لنا، وداخلاً تحت طاعتنا، ففرّق العسكر، فإذا علمتُ ذلك حضرنا»، فلما وصل كتابه إلى ابن العلقمي، دخل إلى المستعصم، وقال له: «إن جندك كثيرون وعليك كلف كثيرة، والعدو قد رجع من بلاد العجم، وعندي من الرأي أن تعطي دستوراً (أي تُسرّح) لخمسة عشر ألف فارس من عسكرك وتوفر معلوفهم»، فأجابه الخليفة إلى ذلك، فخرج ابن العلقمي، وعرض العسكر، وانتقى منهم خمسة

عشر ألف فارس، وأعطاهم دستوراً، ومنعهم من الإقامة ببغداد وأعمالها، وأخرج لهم أوراق الدستور، فتفرقوا في البلاد، ثم إن ابن العلقمي أتى إلى المستعصم بعد أشهر، وعمل مثل ما عمل في المرة الأولى، وأعطى دستوراً لعشرين ألف فارس، ثم كتب إلى هولاكو بما فعله، فقصد عندها هولاكو بغداد وأسقط الخلافة.

ولم يكتف ابن العلقمي بذلك، بل تسبب بمقتل الخليفة المستعصم وعشرات الآلاف من الناس، يقول أبو الفداء: «وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو، فتوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل في سلطان الروم، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسّن له الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأُنزل في خيمة، ثم استدعى الوزيرُ الفقهاء والأمثال، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون ...، وكذلك بقي يخرج إلى التتار طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتار عن آخرهم ... وبذلوا السيف في بغداد، وهاجموا دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلا من كان صغيراً، فأُخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان».

ويذكر أبو الفداء أنه لم يقع على كيفية قتل المستعصم، فقيل خُنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة. أما ابن العلقمي، فإنه عُومل بأنواع الهوان من قبل التتار، فكان يقول: «وجرى القضاء بعكس ما أملته»، وتوفي في نفس عام سقوط الخلافة.

يقول ابن كثير واصفاً فاجعة سقوط بغداد: «ولقد اختلف الناس في كمية من قُتل في بغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقيل ثمانمئة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس»، ويقول أيضاً: «ولما انقضى الأمر وانقضت الأربعون يوماً، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس فيها إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنهم التلول».

وبذلك شُغرت الخلافة عن خليفة بعد سقوط بغداد، واستمر هذا ما بين مقتل المستعصم في المحرم سنة 656هـ = 1258م، إلى أن بايع الملك الظاهر بيبرس سلطان المماليك أحمد بن الظاهر أول الخلفاء بالديار المصرية في رجب سنة 658هـ = 1260م [xxxi].

وكان لسقوط الخلافة العباسية في بغداد صداه المؤلم في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان في الوقت نفسه منعطفاً تاريخياً كبيراً، وقد استطاع المماليك تدارك أكبر قدر ممكن من الخسائر التي من الممكن أن تنجم عن هذه الكارثة، وذلك من خلال عدة أمور؛ أبرزها إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، واستقبال العلماء المهاجرين والفارين من طغيان المغول والترحيب بهم، ونقل مركز العالم الإسلامي من بغداد إلى القاهرة، وغير ذلك مما سترد تفاصيله في العوامل الأخرى.

ج ــ فرقة المماليك البحرية:

بدأ الصالح نجم الدين الأيوبي بتكوين هذه الفرقة منذ أيام والده السلطان الكامل عندما كان نائباً له أثناء غيابه عن مصر (625- 627 هـ = 1228 – 1230م)، وذكر المؤرخون أنه كان مغرماً بشراء المماليك الأتراك، ويبدو أن سبب ذلك يكمن في اعتماده عليهم في حمايته من مؤامرات البيت الأيوبي، كما أحس بفساد نية المماليك الأشرفية والكاملية، وأنهم عازمون على الوثوب عليه وانتزاع البلد من يده.

ولما وصل إلى حكم الديار المصرية عام 637 هـ= 1239م، استكثر منهم حتى دفع ذلك عدداً من المؤرخين إلى القول إنه هو «الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمّرهم بديار مصر»، فما كان من هؤلاء (كما ذكر ابن إياس وغيره) إلا أن عاثوا فساداً في البلاد «حتى ضاقت بهم القاهرة، وصاروا يشوشون على الناس، وينهبون البضائع من الدكاكين، فضجّ الناس منهم، فلما زاد أمرهم في أذى الناس شرع الملك الصالح في بناء قلعة بالروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم بها، وسمّاهم المماليك البحرية، وكانت عدتهم ألف مملوك ... وجعل حول هذه القلعة مراكب بحرية مشحونة بالسلاح» ومعدّة لقتال الفرنج إذا طرقوا البلاد، فيكون هؤلاء المماليك على أهبة الاستعداد.

والروضة جزيرة تقع في نهر النيل، كانت تسمى جزيرة مصر، وهي ذات بساتين ومناظر جميلة.

ففرقة المماليك البحرية هذه كانت نواة دولة المماليك البحرية، وتصدت لأعظم خطرين واجهتهما المنطقة آنذاك: الصليبيين والمغول، وكان للكثير من أفرادها دور كبير في توطيد أركان الدولة وإرساء أُسسها، كقطز و بيبرس[xxxii].

د ــ دور تورانشاه وشجر الدر:

وصلت في عام 647هـ= 1249م إلى دمياط الحملة الصليبية السابعة، حيث كان الصالح أيوب وقتها مريضاً، ثم ما لبث أن توفي في العام نفسه بعد أن أوصى بأن يكون السلطان من بعده لولده المعظم تورانشاه، الذي كان غائباً في حصن كيفا على نهر دجلة وقتذاك، فأرسلت شجر الدر زوجة الصالح أيوب في طلبه، وانجلت المعركة عن هزيمة الصليبيين، وانتصار جيش المماليك البحرية.

ويبدو أن تورانشاه لم يستفد من النصر إذ لم يكن الشخص المناسب للحكم، كما أنه لم يكن القائد القادر على مواجهة ظروف تلك المرحلة، فارتكب أفعالاً أودت بحياته في نهاية الأمر، وتسبّبت في انقراض الدولة الأيوبية، وبروز المماليك البحرية في الوقت نفسه.

فبعد الانتصار على الصليبيين قام تورانشاه بإبعاد أمراء دولة أبيه واعتقالهم ــ وهم أصحاب النصر الحقيقي ــ وقرّب غلمانه الذين جاؤوا معه من حصن كيفا، وولّاهم المناصب والوظائف السلطانية، ولم يقف عند هذا الحد، بل أرسل في طلب شجر الدر يتهددها ويطالبها بمال أبيه وثروته، فاستفزت هذه الأفعال المماليك البحرية، وحفّزتهم لتزعم مؤامرة ضده، فاتفقوا على قتله، و فعلوا، ومات تورانشاه جريحاً حريقاً غريقاً[xxxiii]، فكان آخر حلقة في الدولة الأيوبية، وأول من ساهم بأفعاله بانتقال الحكم إلى المماليك البحرية.

أما شجر الدر؛ فقد قامت بأعمال حكيمة تدل على ذكائها، كانت ذات آثار عميقة في قيام دولة المماليك البحرية، ففي أثناء وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر وبعد استيلائها على دمياط، وفي أثناء كل ذلك توفي زوجها الصالح نجم الدين أيوب، فقامت بإخفاء نبأ وفاته، ثم أرسلت في طلب تورانشاه، فكان هذا التصرف سبباً في الإبقاء على معنويات الجيش، واستمراره في مقاومة الحملة الصليبية، والانتصار عليها في نهاية المطاف.

وبعد مقتل تورانشاه أضحى العرش شاغراً، فوقع الاختيار على شجر الدر لتولي السلطنة، فباشرت التواقيع، ونُقش اسمها على السكة، ثم دخلت في مفاوضات مع الصليبيين انتهت إلى إعادة دمياط للمسلمين، وفك الأسرى، وإطلاق سراح لويس التاسع مقابل مال مقدر. ولذلك عدّ بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية، وتورانشاه آخر ملوك الأيوبيين[xxxiv].

وبعد تولي شجر الدر للسلطة تمردت الإمارات المختلفة واستقلّت معلنة رفض التبعية للسلطانة الجديدة، فانقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين، الأولى بأيدي المماليك في مصر، والثانية بأيدي الأيوبيين في الشام، ووقف الخليفة العباسي المستعصم بالله رافضاً مبدأ قيام امرأة في حكم المسلمين، وشعر المسلمون كذلك بحرج شديد في أن يتولى أمرهم امرأة، فأصبحت شجر الدر في مواجهة معارضة كبيرة تمثلت بـــ:

ـــ موقف الخليفة العباسي.

ـــ ثورات الأيوبيين.

ـــ موقف المصريين أنفسهم الذين أبدوا امتعاضهم من أن تحكمهم امرأة.

وقد أخرجت شجر الدر الجميع من هذا المأزق عندما تزوجت المعز عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم بعد بلوغ أهل مصر قدوم التتار، فتكون شجر الدر بذلك قد نجحت في صد الحملة الصليبية من جهة، وهيأت البلاد لمواجهة التتار بتنازلها عن العرش من جهة ثانية، كما حسمت النزاع القائم بتولي العرش امرأة من جهة ثالثة.

وكما عدّ بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين المماليك، رأت فئة أخرى أنها آخر السلاطين الأيوبيين، وأن المعز عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك[xxxv].

هـــ ـــ الاعتراف الأيوبي:

مع قيام حكم المماليك، بدأ الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق يستعد عسكرياً لدخول مصر والقضاء على الحكم المملوكي فيها وإعادة الحكم الأيوبي لها.

فلما كان كل من الجيشين المملوكي والأيوبي يتحفزان لبعضهما البعض، نجحت وساطة الخليفة المستعصم في سنة 651هـــ = 1253م بحل النزاعات بين الطرفين، إذ حثهما على ترك الخلافات والاستعداد لمواجهة الخطر المغولي الذي لاح شبحه حول بلاد المسلمين.

فأبرم الأيوبيون اتفاقية تعد وثيقة اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر، وذلك بعد أن أحست الخلافة العباسية في بغداد كما بيّنا بخطر التتار الذين اقتربوا من العراق، فرأى

الخليفة العباسي المستعصم أن يعمل بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين أمام هذا الخطر، فأرسل رسولاً إلى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ــ وهو نجم الدين البادرائي ــ يأمره بمصالحة الملك المعز أيبك، وأن يتفقا على حرب التتار، فحدث اتفاق بين الأيوبيين والمماليك عام 651هـ=1253م. ومما تقرر في الصلح:

ــ اعتراف الناصر يوسف بسلطنة أيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، كما تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني في حوزة المماليك.

ــ اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام، وإطلاق المعز أيبك جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر.

وكانت هذه الاتفاقية ذات قيمة كبرى، وشكلت منعطفاً في تاريخ الدولة المملوكية؛ لأنها كانت اعترافاً صريحاً من قبل الأيوبيين بشرعية سلطنة المماليك في مصر.

وبعد ذلك التفت أيبك إلى تهدئة الأوضاع الداخلية والقضاء على المشاكل التي واجهته وعلى رأسها ثورة العرب المسلحة بزعامة الشريف حصن الدين بن ثعلب في سنة 651 هـ = 1253م، فلقد هدفت إلى القضاء على حكم المماليك بسبب أصلهم غير الحر، وإعادة مصر إلى سلطان العرب المسلمين، وقد أثارت هذه الثورة مخاوف المماليك، فأرسل أيبك حملة عسكرية بقيادة أقطاي ــ أحد زعماء المماليك البحرية ــ للقضاء عليها، وبالفعل تمكن أقطاي من دحرها، وظل حصن الدين طليقاً يحكم مصر الوسطى حتى قبض عليه الظاهر بيبرس في الإسكندرية[xxxvi].

و ــ إحياء الخلافة العباسية:

أخذ العالم الإسلامي يحس بفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة 656هـ = 1258م، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة رسول الله ﷺ.

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستعصم العباسي أن يخلفه أحد أبناء بيته في بغداد، إذ غدت حاضرة العباسيين قاعدة المغول الوثنيين، لذلك أراد بعض حكام المسلمين في

البلدان المجاورة أن يغتنموا الفرصة لإحياء الخلافة في بلادهم مما يعود على من ينجح بذلك بالمكانة السامية بوصفه حامي الخلافة الإسلامية والمتمتع بعطفها.

ولم يكن الظاهر بيبرس أول من فكّر بإحياء الخلافة العباسية، وإنما سبقه إلى التفكير بذلك الناصر يوسف الأيوبي والمظفر قطز، فقد حاول الناصر يوسف الأيوبي ــ صاحب حلب ودمشق عند مولد دولة المماليك ــ أن يستميل أحد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه المغول إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليعلنه خليفة ويجني من وراء ذلك بعض المكاسب السياسية التي تُمكنه من الصمود في وجه المماليك بمصر، ولكن سرعة تطور الأحداث التي صحبت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه.

وحاول كذلك السلطان المظفر قطز إحياء الخلافة العباسية، وذكر ذلك السيوطي (ت911هـ = 1506م) فأشار أن قطز علم وهو بدمشق ــ عقب انتصاره على المغول في عين جالوت ــ بوصول أحد أمراء بني العباس، فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى مصر، غير أن العمر لم يمهله لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية في بغداد[xxxvii]، ثم نجح الظاهر بيبرس بذلك.

وكانت قضية إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية كالتالي: إذ كتب الأمير علاء الدين البندقدار ــ نائب بيبرس في دمشق ــ إلى بيبرس يخبره بأن أحد بني العباس (وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد) وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بني مهنا يشهدون على صحة نسبه، وأنه يُريد أن يلتحق بالظاهر بيبرس بالقاهرة، وفعلاً توجه إلى القاهرة، فاستقبله بيبرس مع الوزير وقاضي القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها استقبالاً حافلاً، ثم أنزله بيبرس في قلعة الجبل في مكان جليل.

وبعد ثلاثة أيام عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاعة الأعمدة في القلعة، حضره القضاة ونوّاب الحكم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس، ثم شهد العربان وخادم من البغداديين بصحة نسب الأمير أحمد العباسي، وأقرّ هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء، ثم قبل قاضي القضاة تلك الشهادات وسجّلها، ثم بايعه بالخلافة، ثم تقدم بيبرس وبايع

الأمير العباسي أيضاً بالخلافة «على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله في حقها وصرفها في مستحقها».

ثم بايع الناس الخليفة الجديد، وكتب بيبرس إلى سائر الملوك والنوّاب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لُقّب بلقب المستنصر بالله. وقد تم ذلك كله يوم الاثنين 13 جمادى الأولى سنة 659هـ = 1261م، وفي اليوم التالي مباشرة صلّى الخليفة بالناس في جامع القلعة، ودعا في الخطبة للملك الظاهر بيبرس [xxxviii].

وللقارئ أن يسأل: ما الفوائد التي جناها بيبرس من إحياء الخلافة العباسية؟ والحقيقة إنها فوائد كثيرة، سأذكر هنا أهمها:

ـــ أضفى على نفسه وعلى حكمه صبغة شرعية.

ـــ ثبّت دعائم ملكه، وأحاط شخصه بهالة من العظمة والسمو داخل مصر وخارجها.

ـــ لم يعد يبدو في نظر معاصريه مغتصباً للحكم من بني أيوب أو من المظفر قطز، وإنما بدا في صورة السلطان الذي اختاره الخليفة العباسي لحكم البلاد والعباد، وقلّده فعلاً مقاليد الأمور، لا في مصر والشام وحدهما، بل في البلاد الإسلامية كافة[xxxix].

هذا ما قدمه بيبرس لنفسه وحكمه، أما ما قدّمه لدولة المماليك فكان خدمة لا نظير لها، وتجلت فائدة ذلك في عدة أمور، منها:

ـــ أصبحت مصر مقر الخلافة ومركز المسلمين.

ـــ ظهور سلاطين المماليك أمام العالم الإسلامي حماة للخلافة والخلفاء.

ـــ اكتساب السلطنة المملوكية شرعية لحكمها لم تكن لتكسبها من مصدر آخر، إذ حصل السلطان الظاهر بيبرس ومن سيخلفه على شرعية الحكم من قبل الخلافة الإسلامية ـــ وهي أعلى سلطة شرعية في الإسلام ـــ مفوضين منها بحكم المسلمين.

ـــ ظهر المماليك أمام العالم الإسلامي بمظهر المدافعين عن الخلافة، وألقى هذا عليهم مسؤوليات كبيرة لرفع راية الإسلام والدفاع عنه وإحياء شعائره ورعاية مقدساته.

ـــ رفع وجود الخليفة العباسي في القاهرة من مكانة سلاطين المماليك، وجعلهم على درجة أعلى من سلاطين باقي البلاد الإسلامية وحكامها[xl].

ـــ يرى أحد الباحثين أن بيبرس هدف من وراء إحياء الخلافة العباسية وتجديدها إلى الرد على إعلان الخلافة الحفصية في تونس، التي لم تعترف بها سلطنة المماليك في مصر. وكانت العلاقات المملوكية الحفصية ودية بسبب عوامل الدين والجوار، ثم شابها الفتور بسبب مشكلة الخلافة، وكان المماليك يعدون الحفصيين متقاعسين عن الجهاد، ومرة قال السلطان المملوكي لملك الحفصيين: «مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين» [xli].

ـــ يرى البعض أن المماليك كانوا محرجين بسبب أصلهم المملوكي، والنظرية السياسية الإسلامية تجعل من شروط الحكم أن يكون الحاكم حراً، ويُروى بأن المعاصرين لحكم المماليك تذمروا منهم بعد انقلابهم على ساداتهم الأيوبيين (إذ ظهروا بمظهر من اغتصب الحكم منهم)، فأهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يُسمعونه ما يكره، حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون «لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة»[xlii]. وبإحياء الخلافة تخلّص المماليك من هذا الحرج.

وعلينا أن نشير إلى أن بيبرس قد أحس ـــ عقب انقضاء موجة الحماسية الأولى التي صحبت إحياء الخلافة العباسية ـــ أنه ليس من مصلحته ولا مصلحة دولة المماليك أن تقوم إلى جانبه في القاهرة سلطة قوية يعدها المسلمون كافة السلطة الشرعية في العالم الإسلامي، وأمام هكذا واقع خطر؛ توجه بيبرس نحو (التخلص) من الخليفة الجديد بأن شجّعه على الخروج إلى بغداد لاستردادها من المغول، ونحن نعلم أن هذا يحتاج إلى قوة ضاربة كبرى نظراً لعظمة قوة المغول، ولكن بيبرس ترك الخليفة يتجه صوب بغداد في قوة صغيرة أحاط بها المغول وأبادوها، وسقط الخليفة المستنصر بالله صريعاً في المعركة، ولا معنى لإظهار بيبرس أسفه وحزنه لما حل بصديقه الخليفة، لأنه يُعد مفرّطاً بحياة المستنصر بالله ومن معه.

ومع كل ذلك، صار من الصعب على بيبرس أن يتراجع عن مشروعه في استكمال إحياء الخلافة العباسية، وصار مسؤولاً ولو أدبياً عن إقامة خليفة عباسي آخر، وصار من غير الممكن أمام

الرأي العالم في العالم الإسلامي أن يظل منصب الخلافة شاغراً في القاهرة، لذلك أرسل بيبرس في طلب أمير عباسي جديد هو أبو العباس أحمد، وتمّت مبايعته، ولُقّب بالحاكم لأمر الله[xliii].

ويُفرض هنا علينا سؤال: هل سيُفكر بيبرس بالتخلص من الخليفة الجديد وسيوفده لاسترداد بغداد، أم سيتّبع سياسة ناجعة أخرى؟ نجيب أن بيبرس توجه نحو إجراءات جديدة لمنع تضخّم نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله، وسأُلخص أبرز هذه الإجراءات بالتالي:

ـــ راقب الخليفة مراقبة شديدة.

ـــ لم يسمح له بالظهور في المناسبات العامة.

ـــ حدّ من حريته ونشاطه.

ـــ استقدم عدداً من أبناء البيت العباسي إلى القاهرة ليلّوح بهم في وجه الخليفة الحاكم إذا حدّثته نفسه بالخروج عن نطاق الدائرة التي رسمها له بيبرس.

ـــ صار الخليفة شبه محجور عليه، فلم يعد يتصل به أحد من المسؤولين في الدولة دون إذن السلطان.

ـــ حدد له ولأسرته ما يكفيهم كل يوم من طعام يُصرف لهم.

وصارت أعمال الخليفة مقصورة على ما يلي:

ـــ تفويض الأمور العامة إلى السلطان المملوكي، الذي صار يستأثر بشؤون الدولة كافة.

ـــ كتابة العهد للسلطان المملوكي بالسلطنة.

ـــ الدعاء للخليفة قبل السلطان على المنابر.

ـــ التردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالأعياد والمناسبات.

وأبلغ تعبير عن حال الخليفة هذه صوّره لنا المقريزي (ت 845هـ = 1441م) بقوله عن خلافته: «ليس له فيها أمر ولا نهي، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين»[xliv].

على كل حال؛ في عام 740 هـ= 1339م توفي المستكفي بالله بعد أن عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه أحمد، ولكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يلتفت إلى ذلك وبايع بدلاً منه الواثق بالله إبراهيم بن محمد، وبعد وفاة الناصر محمد وتولي ابنه أبي بكر عرش السلطنة عزل الواثق بالله وأحل محله أحمد الحاكم بأمر الله وهو ابن المستكفي بالله، وذلك في عام 742هـ=1341م، وفي عام 753هـ=1352م، بويع أبو بكر شقيق الخليفة أحمد بالخلافة بعد وفاته، ولُقب بالمعتضد بالله، وظل خليفةً في مصر إلى حين وفاته في عام 763هـ=1361م، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه أبي عبد الله محمد والذي تلّقب بالمتوكل على الله[xlv].

وبعد هذا الاستعراض السريع للخلفاء العباسيين في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية فقط، يجد الباحث أن سلطة هؤلاء لم تكن إلا سلطة صورية، إذ كانت جميع الأمور بيد السلطان، والخليفة ليس له من الأمر شيء، ولم يتمتع إلا بسيادة شكلية، ويلخص ذلك قول أحد الباحثين: « وكان أهم مظاهر السيادة التي تمتع بها الخلفاء العباسيون في مصر ثلاثة، وهي: السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعياً، وذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة، ونقش اسمه على السكة، إلا أن سلطة الخليفة كانت في الواقع صورية، كما كانت وظائفه وهمية»[xlvi].

وكان من مظاهر الخلافة في ذلك العصر الدعاء للخليفة في المساجد، ومن بعده للسلطان، إلاّ في مسجد القلعة فإن الدعاء يكون للسلطان أولاً ثم للخليفة، وبقي اسم الخليفة يسك على العملة حتى عهد الظاهر بيبرس، ومنع من جاء بعده من السلاطين سك العملة باسم الخلفاء، مع أن السكة كانت من شعائر الخلافة الإسلامية دائماً، وأما ما بقي للخلفاء من ذلك فهو لبس البردة ومسك القضيب.

ومن وظائف الخليفة آنذاك مبايعة السلطان، وتفويض الأمراء التابعين للسلطان بكتابة تقليد لهم بذلك حتى تكون سلطتهم شرعية، وفي الواقع لم يكن للخليفة العباسي سلطة تعيين نفسه، فلم يكن يُعيّن إلا بعد أن يبايعه السلطان وقضاة المذاهب الفقهية الأربعة، ولم يكن حكمه وراثياً؛ بمعنى أن السلطان قد يتدخل ليعين ابن عم الخليفة أو أخاه بدلاً من الابن، أو من يرغب من أفراد الأسرة العباسية، بل كان السلطان أحياناً ــ إن أراد ــ يأمر القضاة الأربعة بعزل الخليفة، وفي هذه الحالة قد يسجن السلطانُ الخليفة في قلعة الجبل، أو ينفيه إلى قوص في أقصى الصعيد، ومع كل ذلك لم تبلغ إهانة سلاطين مصر للخلفاء العباسيين ما بلغته في عصر البويهيين في العراق الذين كانوا

يسملون أعين الخلفاء ويقتلونهم، فإذا تولى خليفة في عصر المماليك كانت تقام له حفلة مبايعة لا تقل في عظمتها عن حفلة مبايعة السلطان، يحضرها رجال الدولة وعلى رأسهم السلطان، فيقوم القضاة بتقليده، ويقدم له السلطان التشريف، أو ما يسمى بخلعة الخلفاء[xlvii].

ز ــ اهتمام المماليك بالناحيتين الدينية والعلمية:

عُني سلاطين المماليك وأمراؤهم عناية فائقة بالناحيتين الدينية والعلمية، فأظهروا كل إجلال وتعظيم للعلماء، ونشطوا في تشييد المؤسسات العلمية والدينية إرضاءً لهم، وتقرباً للشعب من خلالهم، فكسبوا بذلك فئة العامة الأمر الذي كان له تأثير رئيسي في استمرار حكمهم وكسبهم لشرعيته.

لقد كان المماليك مخلصين إلى حد كبير للأرض التي جاؤوا إليها ونشؤوا فيها، فلذلك دافعوا عنها وصدوا كل من اقترب منها، وقاموا بأعمال وسطروا إنجازات تشهد على إخلاصهم وتدل على غيرتهم، ومهما قيل عنهم فمن الصعب نكران دورهم الكبير في إيصال الأمة العربية والإسلامية إلى بر الأمان، فقد حققوا للبلاد الأمن والاستقرار بعد تصديهم للتتار وطردهم للصليبيين، وعلى أيديهم توحدت مصر والشام من جديد، فعلى الرغم من تمركزهم في مصر، فإنهم لم يهملوا الشام، بل عدُّوها جزءاً من مصر[xlviii].

وفي الجوانب الحضارية الأخرى حقّق المماليك نجاحات كثيرة، فأحسنوا ربط البلاد إدارياً سواء بالتقسيمات أم بالنظام الإداري أو الوظائف الإدارية، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في عصرهم كما سنرى في فصل لاحق.

وهذا النجاح السياسي والإداري والاقتصادي جعلهم قادرين على الالتفات إلى نواحي الحياة الفكرية والاعتناء بها، والغريب أن المماليك على الرغم من أنهم من أصول غير عربية، إلاّ أنه كان لهم أثر واضح في تقدم النشاط الفكري في مصر والشام، فتصدوا لبناء العمائر الدينية والعلمية، التي أقيمت فيها الفعاليات الدينية والعلمية، ودرّس فيها العلماء، وتخرج بها العلماء الأعيان الذين كان لهم الدور الفعّال في النهضة الفكرية، فأشاد المماليك المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستانات والمكتبات، ووقفوا عليها الأوقاف لضمان استمراريتها. وهذا ما سنبيّنه في فصل المؤسسات العلمية بالتفصيل.

ومن ناحية أخرى متصلة بما نتحدث عنه؛ لم يشهد عصر المماليك أي نوع من السياسات ذات التأثير السلبي على اللغة العربية، فلم نجد سياسة محو اللغة كما حدث في آخر أيام الدولة العثمانية من سياسة تتريك على يد الاتحاديين الأتراك، أو كسياسة الفرنَسَة التي اتبعتها فرنسة في المغرب العربي خلال احتلالها له، بل شهدنا عكس ذلك، حيث حافظت اللغة العربية على مكانتها الرئيسية وموقعها الطبيعي في حياة المجتمع، وكان لسلاطين المماليك وأمرائهم وكبار رجال دولتهم نصيب مهم في الاعتناء بها، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ لغتهم التركية أو الجركسية لم تكن مناسبة لإدارة دولة لغة أفرادها العربية.

2ــ العوامل الخارجية:

أ ــ الحملة الصليبية السابعة والتصدي للمغول:

وهي على رأس العوامل الخارجية، وبتخليص المماليك الأمة من هذين الخطرين علا شأنهم، وازدادت قوتهم، وستأتي تفاصيل ذلك في بحث الإنجازات العسكرية.

ب ــ سوء الأوضاع العامة في العالم العربي والإسلامي:

ساءت أوضاع العالم العربي والإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي، في المشرق والمغرب، أما مشرقه فقد اجتاحه المد التتري، كما شهد مغربه انحسار حكم الموحدين وحدوث الانقلابات والمنازعات السياسية، كما تصدع الحكم الإسلامي في الأندلس[xlix]، فجعلت هذه الأحوال من مصر الملجأ الوحيد الآمن والمستقر، والقوة التي يمكن الاحتماء بها، فلاذ بها العلماء وغيرهم، وأدى ذلك إلى انتعاش دولة المماليك البحرية من جهة، وإلى شعورها بأنها أمام مسؤوليات كبيرة، فأدى ذلك كله إلى قوة مركز الدولة وإلى النظر إليها على أنها الأقوى والأفضل، وهذا العامل يتصل بالعامل التالي (هجرة العلماء).

ج ــ هجرة العلماء إلى مصر والشام وتشكيلهم ركناً من أركان الدولة:

كان للعلماء دور كبير ومؤثر للغاية في عصر المماليك، والشاهد هنا أن المماليك اعتمدوا على هؤلاء العلماء في تثبيت أركان دولتهم من جهة، وفي إضفاء الشرعية على حكمهم من جهة أخرى.

ثم إن هؤلاء العلماء قد صبغوا عصر المماليك بأسمائهم وإنجازاتهم، وبتنا نقرأ عنهم وعن سيرهم أكثر من أي شيء آخر، ولعظم هؤلاء العلماء ولكثرة أعدادهم كان عصر المماليك العصر الذهبي لفن التراجم والطبقات والسير، ولا أُريد هنا أن أُعدد أسماء الكتب في هذا الفن؛ لأنني خصصت له فقرة كاملة في فصل العلوم النظرية عند الحديث عن علم التاريخ، فأرجو العودة إليها للتثبت مما أقوله.

ولولا هؤلاء العلماء لما تفعّل النشاط الفكري، ولما دبّت الحياة في المساجد والمدارس والمكتبات والبيمارستانات، ولما رأينا ما رأينا من نشاطات دينية مكثفة دارت في مجالس القضاء والمظالم والمتصوفة، بل إن هؤلاء العلماء قد احتكروا صنعة كاتب الإنشاء وهي أشبه بوزير خارجية في عصرنا، احتكروها بسبب ما اتصفوا به من دهاء وعبقرية.

ولو دققنا بأسماء العلماء الذين هاجروا إلى مصر والشام، واطلعنا على إنجازاتهم؛ فسنرى أنهم كانوا من عمالقة علماء العصور العربية الإسلامية، وهذا ما سيتوضح للقارئ بعد أسطر.

وإن أكبر دور قام به العلماء المهاجرون بالتعاون مع أقرانهم من علماء مصر والشام، دور لا يكاد ينتبه إليه أحد، ولا نكاد نقرأه في كتاب، دور يتجلى في تحديهم لغزوات التتار المدمرة، حين بذلوا جهوداً عظيمة لإعادة جمع أكبر قدر ممكن من العلوم ــ بعد إحراق التتار الكتب وإغراقها وإتلافها ــ خوفاً على نسيان العلم أو ضياعه، فظهرت مئات من المؤلفات في كل العلوم والفنون، وتمثّل جزء من هذه الجهود في كتابة الموسوعات التي كانت ميزة من ميزات ذلك العصر، فحُفظ من خلالها الكثير من العلوم حيث ضمت مواد تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية وبيوغرافية، فاستُدرك بها وبغيرها ما فُقد من العلم.

وقد أشعر الغزو التتري العلماء بأنهم مسؤولون عن تدوين العلم من جديد، فانطلقوا نحو تحقيق هذا الهدف، فساهموا في التأليف والتعليم والإفتاء والقضاء، وبذلك انتقل العلم والتعليم ــ

بعد انحلال نظام الدولة الإسلامية وسقوط عاصمة الخلافة بغداد ـــ إلى مصر والشام وتحت رعاية المماليك.

ونبدأ بالقصة المشوقة لسيرة هؤلاء العلماء بالغزو التتري لبلدان العالم الإسلامي، والذي كان أكبر سبب أجبرهم على الهجرة، بالإضافة لأسباب أخرى أهمها طلب العلم ونشره، فلقد بدأ التتار بغزو البلاد الإسلامية منذ العام 617هـ=1220م، وأسقطوها الواحدة تلو الأخرى، فعاثوا فساداً في آسيا طولاً وعرضاً، ثم دمروا خراسان، وبعد خراسان واصلوا زحفهم نحو العراق، ودخلوا عاصمة الخلافة العباسية بغداد عام 656هـ=1258م فأحرقوها، وقتلوا خليفتها المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فيها، منهين بذلك الدولة العباسية، وفعلوا ما فعلوا في العراق من القتل والسفك والتخريب والإحراق، وهاجموا دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف، ولما جمعوا الفقهاء والأماثل وجميع سادات بغداد ومدرسيها قتلوهم عن آخرهم، حتى الكتب لم تسلم من شرهم، فأحرقوها وأغرقوها، ودام القتل والنهب أربعين يوماً. ثم تركوا العراق متجهين نحو بلاد الشام، فسقطت بيدهم حلب عام 658هـ=1260م، واستسلمت لهم دمشق أواخر عام 658هـ= 1260م[i].

وشاهدنا هنا أن من أبرز فواجع هذا الغزو الكثيرة خسارتنا لكثير من العلماء الذين لم يتردد التتار في قتلهم، ومنهم موفق الدين عبد القاهر بن محمد الفوطي، عالم العربية والكاتب والشاعر، قُتل صبراً في الواقعة ببغداد، وابن صلايا الصاحب تاج الدين محمد بن نصير بن يحيى الهاشمي العلوي، نائب الخليفة بإربل، قتله هولاكو قرب تبريز، ويحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري الضرير، عالم اللغة العربية، دخل عليه التتار فقاتلهم بعكازه وقتل منهم حتى قتلوه، والعلامة محيي الدين بن الجوزي، سفير الخلافة وأستاذدار الخليفة المستعصم، قتله التتار عند دخولهم بغداد، وقتلوا معه أولاده الثلاثة وهم الشيخ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، وشرف الدين عبد الله متولي الحسبة، وتاج الدين عبد الكريم متولي الحسبة بعد أخيه، قُتل و لم يبلغ عشرين عاماً من عمره[ii].

وأمام هذه المصائب والفواجع المتعددة كان لابد من مكان آمن يأوي إليه العلماء، ووجدوا ذلك في مصر والشام حيث أقام المماليك لأنفسهم فيها ملكاً وسلطاناً وأحيوا الخلافة العباسية بالقاهرة، وهذا ما كان له أثر معنوي حيث أصبحت القاهرة مقر الخليفة والخلافة، والمركز السياسي والديني والعلمي للعالم الإسلامي، ففرّ إليها الكثير من العلماء كما سيأتي.

وقد اتصف العلماء المهاجرون بتنوعهم، إذ شملت الهجرة عدداً كبيراً من المشارقة والأندلسيين والمغاربة، الذين انصهروا في مجتمع دولة المماليك وشاركوا في فعالياته، مشكلين تياراً فكرياً ودينياً رائعاً استفادت مصر والشام منه كثيراً. وهذه أمثلة عنهم.

فمن العلماء المشارقة الفارين من وجه التتار كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم (ت 660هـ = 1261م)، هرب من حلب إلى مصر بعد ما شاهد ما أصاب حلب من التتار. وفرّ من التتار أيضاً عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد (ت 684هـ = 1285م)، الذي عاش في حلب حتى كان الغزو التتري لها عام 658هـ = 1260م، فهرب مع من هرب إلى الديار المصرية. ومنهم جلال الدين إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمود العقيلي القلانسي (ت 722هـ = 1322م) هرب من التتار إلى مصر وأقام فيها لنفسه زاوية[lii].

ومن دمشق وصل إلى مصر العديد من علماء آل قدامة، وهم أسرة فلسطينية الأصل، سكنوا الصالحية المجاورة لدمشق، وجميع هؤلاء عملوا في التدريس في مساجدها ومدارسها، وفي غيرها من مدارس الأمصار ومساجدها في دمشق والقاهرة والإسكندرية، ورحل العديد من آل قدامة في طلب العلم ولاسيما إلى مصر والإسكندرية ودمياط، فاستقر بعضهم في القاهرة، ووصل بعضهم الآخر إلى منصب قاضي القضاة أو شيخ الشيوخ فيها[liii].

أما الأندلسيون، فيزخر كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني أحمد (ت1041هـ=1631م) بالحديث عن كثير ممن ترك الأندلس مهاجراً ووافداً إلى مصر، ومن أولئك أبي عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي (ت 662هـ=1263م) الذي رحل في طلب العلم فقدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية في القاهرة، وظلّ فيها حتى وفاته. ومن الأندلس رحل أحد كبار علمائها محمد بن أحمد القرطبي، فاستقرّ في مصر حتى توفي في صعيدها عام 671 هـ = 1272م. وكذلك رحل إلى مصر عالم النحو وإمام القراءات محمد بن عبد الله بن مالك (ت 672هـ = 1273م) صاحب الألفية المشهورة[liv].

ويأتي في مقدمة العلماء المغاربة الوافدين إلى مصر والشام العلامة عبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ=1405م)، الذي وصل إلى مصر عام 784هـ=1382م، فتلقاه أهلها وأكرموه

وأكثروا ملازمته والتردد إليه، فتولى قضاء المالكية فيها، ودرّس في الجامع الأزهر وفي الجامع الأموي وغيرهما[lv].

وبهؤلاء العلماء أصبحت مصر ــ كما أقرّ بذلك العالم الموسوعي ابن فضل الله العمري (ت 749هـ = 1348م) ــ أم الممالك ودار الخلافة ومنبع العلماء، فتبعها الشرق والغرب والقريب والبعيد[lvi]، فساهم هؤلاء العلماء القادمون في إنعاش الروح الفكرية، وساعدوا مصر والشام كي تتبوأا مكان الصدارة بين بلدان العالم الإسلامي آنذاك.